

رسالة من ملك المغرب إلى سلطان الحجاز في شأن أبي العباس المقرى⁽¹⁾

د. محمد بن معمر
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
جامعة وهران

يعد أبو العباس أحمد بن محمد المقرى (986 - 1041هـ / 1578 - 1631م) من الشخصيات اللامعة التي أنجبتها الجزائر، فهو من مواليد تلمسان وبها نشأ وترعرع، وتلقى علومه من أفواه من بقي منها من العلماء والفقهاء والأدباء، وفي مقدمتهم عمّه سعيد المقرى الذي كان عمدته في التعلم والتأدب فهو مفتي تلمسان وكبير مشيختها. وقد ظلّ أبو العباس وفيها لهذا التكوين حتى وهو في دمشق والقاهرة يتمتع بالجلابة والحظوظ.

وبعد هذا التكوين العلمي في مسقط رأسه تلمسان فصل عنها متوجهًا إلى حاضرة فاس بالغرب الأقصى التي دخلها في صفر 1009هـ / 1600م وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره. وقصد جامع القرويين فدارت بينه وبين علمائه وفقهائه مناقشات، وعلى رأسهم الشيخ السلاسي الذي اعترف له وانصافه، وسرعان ما ذاع صيته وطار ذكره، وأقبل على الناس وأقبلوا عليه واحتلّت بالطلبة والأدباء واستجاز العلماء وكان يبهرهم بقوّة العارضة وشدّة الذاكرة، وهو ما حلا به مترجمه الذهبي قائلًا: "حافظ المغرب جاحظ البيان، ومن لم ير نظيره في جودة القربيحة وصفاء الذهن وقوّة البديهة، وكان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث، ومعجزا باهرا في الأدب والحضرات، وله المؤلفات الشائعة.." ⁽²⁾

ثم انتقل إلى حاضرة مراكش واتصل بالسلطان السعدي أبي العباس أحمد المنصور الذهبي، كما تعرف على طائفة من الأدباء والعلماء الذين كانت تزدان بهم الحاضرة،

لقد انبعث المقرى بما رأى من أبهة الملك وانتشار العلم ورخاء الحياة في فاس ومراكش، ولم يرجع إلى تلمسان إلاّ وفي نيته العودة إلى المغرب الأقصى ثانية. وبالفعل فقد عاد إليه في سنة 1013هـ/1604م، سيمما وأنّ مدينة تلمسان بدأت تفقد أهميتها السياسية والعلمية بسبب الفتن والتزاعات التي كانت مستمرة بين سكانها والأتراك العثمانيين الأمر الذي دفع بكثير من أبنائها وعلمائها إلى الهجرة غرباً وشرقاً.

أقام المقرى في المغرب إلى غاية سنة 1027هـ/1618م، وقد كان معجباً به حيث تولّ فيه الوظائف السامية كالأمامية والخطابة والفتوى، وهي الوظائف التي كان يتقلّدها العلماء البارزون في عهده، وكان "بعض سلاطين المغرب يقدمون علماء الجزائر وخصوصاً تلمسان لأسباب سياسية تتعلق بسياستهم من الدولة العثمانية⁽³⁾.

ولكن المغرب، رغم طول مكث المقرى فيه، فإنه لم يكن في حالة استقرار سياسي، فبعد موت المنصور الذهبي الذي تغيّر عهده (986-1012هـ/1578-1603م) بالهدوء والرّخاء، دخلت البلاد مرحلة جديدة اتسمت بالصراع والتطاحن على السلطة والعرش بين أبناءه الثلاثة وهم: أبو عبد الله محمد الشيخ المأمون، وأبو فارس عبد الله الواثق، وزيدان الناصر، وظل هؤلاء الثلاثة يقاتلون طيلة سبع سنوات ويتحالفون الواحد منهم مع هذا أو ذاك. وفي دوّامة هذا الصراع اغتيل أبو فارس سنة 1019هـ/1610م على يد صاحب هذه الرسالة، وعادت البلاد إلى الانقسام إلى قسمين: شمالي مركزه فاس، وجنوبي مركزه مراكش، كما كانت الحال في أوائل أيام السعديين.

ولم يكن العلماء والفقهاء والمقرى واحد منهم، بمنأى ومعزل عن تلك التزاعات، بل كانوا في مقدمة وقود الفتنة إذا وقعت، لأن منصب الإفتاء يجعلهم هدفاً لطلب التأييد والنصرة، وهو ما حدث بالفعل عندما استنجد المأمون السعدي بالأسبان سنة 1019هـ/1610م وسلم لهم العرائش، ثم تحايل على علماء فاس واستصدر منهم فتوى تبيح له ما فعل. وقد انقسم هؤلاء العلماء في موقفهم من هذه الفتوى إلى مؤيد ومنكر ومحتف. وسارط الأحوال بالغرب من سبي إلى أسوأ، واشتد التطاحن على الملك بين ورثة العرش، ولجأ بعضهم إلى النصارى مستنجداً، وأصبحت الخاصة بما أصيّبت به العامة من

تصدع وحدة، واحتلاف رأي وافراغ كلمة، وانعدم الأمان وكثرة الغلاء، وانتهك الحرمات وأخذ العلماء بالظلمة⁽⁴⁾. وفي خضم هذه الظروف والتطورات الخطيرة التي عرفها المغرب الأقصى، أحس المقربي بأن الأمور أصبحت تسير على غير ما يروم، فقرر الرحيل إلى مكان آمن لنفسه فلم يجد سوي في أرض النبوة بجوار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا ما أشار إليه بقوله: "إنه لما قضى الملك الذي ليس لعيشه في أحكماته تعقب أو رد، ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء أو رد، برحلي من بلادي، ونقلتي عن محل طاري وتلادي، بقطر المغرب الأقصى، الذي ثمت محاسنه لولا أن سماسته الفتنة سامت بضائع منه نقصا، وطما به بحر الأهوال فاستعملت شعرا العيش في كامل رونقه من الزحاف إضمارا وقطعا وقصاصا"⁽⁵⁾.

ومهما كانت الأسباب التي دفعت المقربي إلى مغادرة المغرب الأقصى، فإن رحيله لم يكن متخفيًا، بل طلب الإذن من ملك المغرب، فأذن له وكتب في شأنه إلى سلطان الحجاز هذه الرسالة، وهو ما يضعف الرأي القائل بأن المقربي ارتحل خوفا منه(ملك المغرب) لأنّه اقْتُمَّ بِأَنَّ لَهْ خَلْطَةٌ وَانْتِمَاءٌ إِلَى بَعْضِ الْأَمْرَاءِ ضَدَّهِ⁽⁶⁾. وفيما يلي نص الرسالة.

"نص الرسالة"

ولما أزمت الرحلة إلى الحجاز، واستأنفت ملك المغرب في الإذن، كتب لي إلى سلطان الحجاز شريف مكة من إنشاء الكاتب المذكور⁽⁷⁾ ما نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا وموانا محمد وآلـهـ، من عبد الله تعالى الإمام أبي محمد عبد الله الغالب باللهـ أمـيرـ المؤمنـينـ⁽⁸⁾، ابن الإمام أبي عبد الله محمد الشـيخـ المـأـمـونـ أمـيرـ المؤمنـينـ⁽⁹⁾، - ويلـيـ هذاـ العـلـامـ الشـرـيفـ بـخطـ السـلـطـانـ بالـذـهـبـ فيهاـ السـيـرـ الشـرـيفـ - وبـعـدـهاـ، ماـ نـصـهـ: ابنـ الإمامـ المجـاهـدـ أبيـ العـبـاسـ أـمـدـ المنـصـورـ بالـلهـ أمـيرـ المؤـمنـينـ⁽¹⁰⁾، ابنـ الإمامـ أبيـ عبدـ اللهـ مـحمدـ الشـيخـ الـمـهـديـ أمـيرـ المؤـمنـينـ⁽¹¹⁾، ابنـ الإمامـ الـقـائـمـ بأـمـرـ اللهـ الشـرـيفـ الحـسـنـيـ⁽¹²⁾، أـيـدـ اللهـ أـوـامـرـهـمـ وـأـسـعـدـ مـوـارـدـهـمـ الـكـرـيـعـةـ وـمـصـادـرـهـمـ، وـخـلـدـ فيـ الـخـافـقـينـ مـفـاخـرـهـمـ وـمـآـثـرـهـمـ، وـظـفـرـ جـنـودـهـمـ الـظـافـرـةـ وـعـساـكـرـهـمـ بـهـنـهـ.

إلى المقر الأشرف، والسرير والرفف، والمطالع التي ما طمعت بمشل شهبها الآفاق، والبدور التي ما امتدت إلى محاولة شبها الأعناق، مسطع الأنوار السنية، والمواهب اللدنية، والطينة التي عجنت بباء الرسالة، والدّوحة التي أزهرت بالزهاء، فشرفت منها السلالة، مقر السلطان الكبير، والنشر من ثنائه في البسيطة ما هو أذكى من المسک والعبر، أمين الله على مهبط وحيه، وخليفة في أمره وفديه، من سر المقام بمقامه ومقدمه، وأورق الصفا تحت أحصنه وقدمه، الخليفة الجليل، الكبير الشهير الخطير، الإمام الهمام، العالم العامل، الأسعد الأسعد، الأسمى الأعلى، الأفضل الأفضل، تاج المعالي عز الدنيا والدين، السيد أبو العلى إدريس⁽¹³⁾، ابن السلطان الكبير، الرفيع المشيل، الطاهر الظاهر، الشريف الأصيل، المعظم الأرضي، الأوحد الصدر، العماد المرحوم، المقدس المطهر، المنعم السيد حسن العلوى الهاشمى⁽¹⁴⁾، أبقاء الله وحرمه الأمين تحبى إليه ثرات مزين المأرب، توجد عليه امتهن الناس يسوقون من المطالب، سلام كريم يضيء منه الأفق، وتنتظم جواهره على مفارق الطرق، يوم ذالكم النادي، والجلس الرفيع الذي أطبق على فضله العاكس والبادي، ورحمة الله وبركاته أما بعد:

حمد الله الذي جعل الرحلة للعلماء نخله، هي ملء العبيه، وفائدة ما يجمعه الراحل في الغيبة، والصلوة والسلام على سيدنا محمد تاج المفرق، وفخر المغرب والشرق، والرضي عن آله وأصحابه الذين اهتدوا بهديه في رحلة الإيلاف، ووهبوا في أحياه سننه وإياباته سننه الآلاف، والدعاء لقائمكم العلي بنصر تعصدم جنوده، وتحقق عليكم ألويته المنشورة وبنوده، فإنما كتبناه إليكم من مسطع أنوارنا، ومطلع أقمارنا، حضرة فاس رفع الله منارها، وعمر بوفود السعادة ديارها، مستخبرين عن اجتماع شملكم الركبان، منتشقين من زهارات ألفاظكم وأغصان أفلامكم أنفاس الغريب والبيان، وعندنا من الشوق إليكم ما لو فسح الأدب في ذكره لاستغرق أوصاف كل لبيب، واستوقف الأسماع من حديث القلب وساكه على ذكري متزل وحبيب، وشرح غريب وجده حتى يقال ما أحسن كلامه في شرح الغريب، فإلى متى أشكوا الدهر منكم، واضرب الرمل سؤالا عنكم، والرمل قد

حال بيّني ويبينكم، قرب الله الدار، وأدنى منكم المزار، هذا وإن الرّحلة للعلوم تتمّ، وأغراضها عند الأعلام أكيدة مهمة، ودياركم والحمد لله منتهى الغاية، ومن عرفات معارفكم تظهر النهاية.

وكان العالم الذي أغاث الله به البشر، وجعل في علماء الإسلام ذكره المبتدأ والمدائح الخبر، الحافظ البحر المتن الذي إذا نحا نحو ترجل الفارسي⁽¹⁵⁾ بين يديه، وطار ابن عصفور⁽¹⁶⁾ حذرا من الباقي المطل عليه، وإذا كتب أغضى ابن مقلة⁽¹⁷⁾ على قذاه، واصبح ابن الباب⁽¹⁸⁾ رافعا عصى القلم قائلا ما ظلم من أشبه أباء، وإذا اهتصر الفروع الفقهية جنى أطيب ثراه، وأجرى من أصولها ينابيع فراها، حتى عمر منها الوشال والوطاب، والتهب في جذوة قبسه ما أتى به الخطاب، وإذا فسر غاض النهر في بحره، ولم يحتاج إلى كشاف محمود فكره، وإذا حدثت بما يرتاب في صحيح حديثه مسلم، وإذا أعلم بإكمال سنته العلي رأيت منه إكمال المعلم، مفتى المسلمين وولي المؤمنين، مالك قلم المعارف، وجامع التالد منها والطارف، ملك العلماء والمروء في مقدمتهم علماء.

الرّحلة الرواية، المحدث النحوى، البيانى الأصولي، الكلامي التاريخي، الأدبي الإخباري، الحجة أبو العباس أحمد ابن الشيخ المرفوع المقدس، أبي عبد الله محمد المقرى، ابن ساداتنا المقربين بين علماء الإسلام، وأشرف الأمم الذين لأعلامهم الرفع بدار السلام، رحم الله من مضى منهم وسلف، وأتم النعمة على من بقي وخلف، ورد على المولى المنصور سقى الله عزمه الطائل، وعلى ملحده سلام الندى على ورق الخمائل، من مسقط رأسه، وحمل أنفسه، حضرة تلمسان حماها الله، يسلك طريق جده⁽¹⁹⁾ الوارد على السلطان أبي عنان المرينى⁽²⁰⁾، فاستعمله على خطّة القضاء، فضمّ لذلك صفة الرّياضة العلمية، وحصل على الخطة الدينية والدنيوية، ولا غرو أن يجد الفتى حدو والده، ويقتفي أثره في مصادره وموارده.

فيما لها حسنة ختم الله بها حسّنات الصدر الأول، ورحمة بعثها سبحانه على حين فترة من العلماء، تشهد أنها من الغيث المرسل، فأقام بفاس عفّا طهرا، كلها بالقراءة، ثاقب الذهن، جيد الفهم، أصيل الحفظ، يستظهر المصنفات، راكضا في ميادين التسويد

والتأليف، جمع من أخبار عياض نبذة تشهد باطلاعه المفرط رسماها بأزهار الرياض⁽²¹⁾، وجمع أعيان العصر في نبذة ترجمتها بالجناذ فيمن لقيته من الجهابذ⁽²²⁾، وتصانيف آخر تحمل عن العد، وتكلّم فوق الكراسي بين الحفل، ورقى منابر الخطابة، مقتعداً للذروة من تلك المثابة، يفتّي المسلمين بأوجوبه يليها الدهر بسواند لياليه في طروس أيامه، ولم ينزل على هذه الصفة إلى هذا التاريخ.

حطّم أحشاءه الحطيم، وأصبح يراعه عن ثدي دراته كالفطيم، وكلما أومض من نحوكم بارق، أو در من تلّكم المطالع شارق، أرسل دموعه كالغمائم، فتمسي عليه ثنايا البروق وهي بواسم، يصور أوطانكم بالتأمّل، ويود لو كمل في قطع المهامات إليكم ألف ميل، ولم ينزل يسّيل العقيق على العقيق، هنّزه رعود وجده، إلى تهائمه ونجده، وهاهو قد انتبدلت به الرحلة مكاناً شرقياً، وأقسمت بعده المعرفة إلا تكلّم بالغرب آسيا، وزم ركابه العالي، وقيل لفاس بعده لأعلام صباها أيها الطلل البالي، فطالما قام في نواديها العلمية مقاماً محموداً، وانفق من كنوز المعرفة على الطلبة مالاً ممدوداً، وبنين شهوداً، كالغيث في البلد الخيل، أتى على حسن الدعاء، وسار عن حسن الثناء، فخاطبناكم تنويعها بذكره، وتتبّعها على عظم شأنه وقدره.

إذا وصل جنابكم الرّفيع، يؤمل عاطفة القبول وحسن الصنيع، فاعمروا خزائن علومكم بجوائز كلماته المنضدة، وانشروا على عساكركم ألوية طرورسـه المعقودة على جنود أسطوره الجندة، وليس إلا مزيد التبيان، وما يغنى الخبر عن العيان، وسلموا منا على إخوتكم الملوك الأكابر، رقة الأسرة والمنابر، وأعزز علينا إلا نكون أمامهم، وأبصرهم إذ يلقون على الطروس أقلامهم، وسدّدوا نحونا من سهام أدعيتكم كل مفوق عن قسي الركوع، مراش بأهداب السهر منصل بعياه الدّموع، فعسى أن يرجع إلينا هذا الفقيه البحر على أثره، ويضم عن طول الرّحلة جناح سفره، ويشفي بابنا له من التبرّح، ويطوي بسرعة سيره المنازل، وكيف لا وهو طائر بالفرح، والله ينصر أعلامكم، ويسعد لياليكم وأيامكم وهو سبحانه يتزلّل الفتح عليكم، ويجهز مرد الملائكة إليكم، بعزته والسلام،

وكتب لتسع خلون من رمضان من عام سبع وعشرين وألف سنة (9 رمضان 1027) انتهى.

الهـ وامـش

- 1) وردت هذه الرسالة في مخطوط "رحلة المقرى إلى المغرب والمشرق" وهو قيد التحقيق من طرف صاحب هذا المقال.
- 2) الحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر، القاهرة: دار الكتاب ل الإسلامي. ج 1، ص: 302.
- 3) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافى، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998. ج 2، ص: 214.
- 4) عبد الوهاب بن منصور، مقدمة روضة الآس، الرباط: المطبعة الملكية، ط 2، 1983، ص: يد.
- 5) المقرى أبو العباس، نفح الطيب، بيروت: دار صادر، 1968. ج 1، ص: 13.
- 6) عبد الكريم الفكـون، منشور الهدـاـيـة، بيـرـوـت: دار الغـرب الإـسـلـامـيـ، 1987، ص: 223.
- 7) يزيد الفقيـهـ الأـديـبـ أـبـاـ عـبـدـ الـلـهـ حـمـدـ بـنـ أـجـمـدـ الـفـاسـيـ الشـهـيرـ بـالـمـكـلـاتـيـ، كـاتـبـ الـبـلـاطـ السـعـدـيـ فـيـ فـاسـ، وـصـاحـبـ الـمـقـامـةـ الـزـهـرـيـ وـالـشـعـرـ الرـائـقـ، لـهـ تـذـيلـ عـلـىـ نـظـمـ الـوـفـيـاتـ لـابـنـ عـلـىـ الـفـشـتـالـيـ، وـهـوـ مـنـ أـصـدـقـاءـ الـمـقـرـىـ وـلـهـ مـعـهـ مـسـاجـلـاتـ وـمـبـادـلـاتـ أـدـبـيـةـ، تـوـيـ سـنـةـ 1041ـهــ. عـبـدـ الـهـادـيـ التـازـيـ، جـامـعـ الـقـرـوـيـنـ، بـيـرـوـتـ: دـارـ الـكـتـابـ الـلـبـانـيـ، 1973ـ جـ 2ـ، صـ: 519ـ.
- 8) هو الذي اغتال عمّه أبا فارس عبد الله الواثق سنة 1019 هـ / 1610 م و كان شديد الشبه بأبيه في القسوة والعنف، وفي مقدمة هذه الرسالة تأكيد على انقسام المغرب إلى قسمين: شمالي مرکزه فاس و يحكمه الغالب بأمر الله، وجنوبي مرکزه مراكش و يحكمه زيدان الناصر. حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، بيروت: العصر الحديث، 1992. ج 3، ص: 209.
- 9) كان ولها لعهد أبيه المنصور وخليفة على فاس وأعمالها، وكان المنصور كثير الاعتناء به والاهتمام بشأنه، ولكنه سرعان ما خيب ظنونه وسبب له متابع كثيرة في أواخر أيامه، فشققى به شقاء كبيرا. وهو الذي سلم مبناء العرائش للأسبان واستتجد بهم ضده أهل وطنه. اليفرني، نزهة الحادي، ط حجرية، ص: 147 وما بعدها.
- 10) أشهر سلاطين السعديين وقمة مجدهم وواسطة عقد ملتهم، ولد بمدينة فاس سنة 956 هـ، واعتلى عرش الدولة سنة 986 هـ / 1578 م، وظلّ عليه إلى حين وفاته سنة 1012 هـ / 1603 م. اختصه أحد ابن القاضي المكتاسي بكتاب هو "المنقى المنصور، على مآثر الخليفة أبي العباس المنصور"، وترجمة قصيرة في جذوة الاقتباس، الرباط: دار المنصور 1973، ج 1، ص: 114 - 115.
- 11) ثالث سلاطين السعديين، تولى حكم الدولة سنة 956 هـ / 1549 م، كان إماماً ديناً وقوراً، وعالماً أدبياً فقيها، له اليد الطولى في التفسير والفقه والحديث، توفي غدراً على يد بعض جنده من الأتراك قرب رودانه من بلاد السوس سنة 964 هـ / 1557 م. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 1، ص: 212.
- 12) أول سلاطين السعديين، توفي سنة 923 هـ / 1517 م، ومن المؤرخين من أنكر على السعديين نسبهم الشريف لأسباب سياسية واضحة، والحقيقة أنهم شرفاء، كما صحق ذلك السلطان العلوي محمد بن عبد الله بن إسماعيل.

- 13) شريف مكة أبو العلى إدريس بن حسن بن أبي نعى محمد بن برّكات الحسني، ولد سنة 974هـ / 1566م، حكم مكة والخجاز من سنة 1011هـ / 1602م إلى غاية سنة 1034هـ / 1625م تاريخ وفاته الحبي، خلاصة الأثر، ج 1، ص: 390 وما بعدها.
- 14) والد إدريس سابق الذكر، ولد سنة 932هـ، واستقل بسلطان مكة والخجاز سنة 992هـ / 1584م حتى سنة 1010هـ / 1601م تاريخ وفاته. الحبي، خلاصة الأثر، ج 2، ص: 2 وما بعدها.
- 15) أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي (ت 987م) نحووي واسع العلم من أئمة النجاة، له كتاب الإيضاح في النحو والتكميلة.
- 16) هو يحيى بن أبي بكر بن عصفور، أبو زكريا العبدري التلمساني، كان حياً سنة 646هـ / 1248م، وهو محدث من كبار علماء المالكية في وقته.
- 17) ابن مقلة محمد، (ت 328هـ / 940م) وزير عباسي، وشاعر وأديب خطاط.
- 18) ابن الباب علي بن هلال (ت 1032م) خطاط من أهل بغداد ابتدأ الخط الرّيحي.
- 19) هو محمد بن محمد بن أحمد، أبو عبد الله المقربي القرشي التلمساني، قاضي الجماعة بمدينة فاس وتلمسان، كان حريصاً على العبادة، مكتبًا على النظر والدرس القراءة، مشاركاً في العربية والفقه والتفسير والتاريخ والأدب، انتقل مع السلطان المربي أبي عنان من تلمسان إلى فاس وتولى قضاء الجماعة بها، وبني له السلطان المدرسة المتوكليّة المعروفة بالمدرسة البوحنانية. ويقي بفاس إلى أن توفي بها سنة 759هـ ودفن فيها ثم نقلت جسنه إلى تلمسان ودفن بها. ابن الخطيب، الإحاطة، القاهرة: مكتبة الخانجي، ج 2، ص: 191 وما بعدها.
- 20) هو أبو عنان فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، لقبه الم وكل على الله، ولد سنة 729هـ، وبُويع في تلمسان في حياة أبيه سنة 749هـ، ومات مقتولاً خنقه وزير الحسن بن عمر سنة 759هـ، وهو الذي صحبه المقربي الجد إلى فاس. ابن الأهر، روضة التسرين، الرباط: المطبعة الملكية، ص: 37.
- 21) طبع الكتاب في خمسة أجزاء سنة 1978م من طرف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة بالرباط.
- 22) من مؤلفات المقربي المفقودة، وهو عبارة عن فهرست لأسمائه وشيوخه.